الثلاثة الزاهدون

للفيلسوف الروسي " ليو تولستوى "
بقلم السيد فخري شهاب الحجيري

كان الجو لطيفاً رائقاً ، والريح رخاء طيبة ؛ وكانت السفينة تجرى بركبها فى اطمئنان وسلام .. وكان فى جملة الحجاج إلى دير « شلوفتسك » أسقف قدم من « أركانجل » لزيارة ذلك الدير

وكان الركاب قد انتشروا على ظهر السفينة فبعضهم قد اضطجع ، وبعضهم جلس للأكل ، وآخرون منهم قد اجتمعوا يزجون فراغهم بالحديث. أما الأسقف فكان قد نزل إلى ظهر السفينة وظل يخطر بين جماعات الركاب ، إلى أن استرعت نظره منهم جماعة ملتفة حول صياد[1] من صيادى السمك وهو يحدثهم ويشير إلى مكان فى البحر ... ووقف الأسقف ومد بصره إلى حيث كان يشير ذلك الرجل فما وجد شيئاً غير مياه البحر تضطرب تحت أشعة الشمس ، ودنا الأسقف من المحدث عله يسمع شيئاً ولكن ما إن رآه هذا حتى رفع قبعته احتراماً وانقطع عن الكلام ، فرفع الآخرون قبعاتهم أيضاً وانحنوا له ، فقال الأسقف :

— لا تزعجوا أنفسكم أيها الأصدقاء فما جئت لأكون سبب ذلك لكم ؛ إنما جئت كي أستمع ما كان يقوله هذا الرجل الطيب

فأجابه أشجع الواقفين وكان تاجراً:

— إنه كان يقص علينا نبأ « الزاهدين » !

— وأى الزاهدين عنيت ؟ !

قال ذلك وذهب إلى جانب السفينة واتخذ مجلسه على صندوق كان هناك

ثم قال :

— خبرونى عنهم . أحب أن أعرف خبرهم وإلى مَ كنتم تشيرون ؟ !

فأجابه الرجل :

— أترى تلك الجزيرة الصغيرة هناك ؟ — وأشار بيده ذات اليمين — إنها الجزيرة التى يعيش فيها أولئك الزاهدون الذين خصصوا أعمارهم لانقاذ أنفسهم !

— ولكن أين الجزيرة ؟ ! إني لا أرى شيئاً !

— هناك إذا تفضلت فاتبعت اتجاه يدى ... أترى تلك السحابة الصغيرة ؟ انظر ما تحتها إلى اليسار قليلا . تلك البقعة الدكناء هى الجزيرة

ونظر الأسقف فى جد إلى حيث كان الرجل يشير ، ولكن عينيه الضعيفتين ما كانتا ترياان غير الماء يعكس أشعة الشمس

— لا أستطيع أن أراها ، ولكن من أولئك الزهاد الذين تتحدثون عنهم ؟

فأجابه صياد السمك :

— إنهم رجال مقدسون . اتصلت بي أخبارهم

(*) هذه القصة وقصص أخرى جمعها مترجمها إلى الانكليزية على أنها بعض ما يرويه سكان مقاطعة « الفولجا » فى روسيا من قيس شعبية ، تبين نفسياتهم الخالصة من التكلف والبغض ، وكان « تولستوى » قد ألف أقوال أولئك السكان فأخرج هذه الأسطورة منها دون أن يزيد عليها شيئا أو يحذف منها شيئا ، أو يضيف عليها تعليقا من عنده (المترجم)

(١) لصياد السمك اسم عربى وهو «العرك» فلو استعمله الكتاب واصطلحوا فيما بينهم عليه لشاع استعماله بين القراء

منذ أمد بعيد . غير أنى لم أحظ بملاقاتهم إلا إلى ما قبل عامين

ثم قص الصياد كيف كان أمره معهم حين نزل فى إحدى الليالى ، فقذفه الموج إلى جزيرتهم دون أن يدرى . فلما أصبح الصباح وارتاد نواحى الجزيرة أبصر كوخاً من الطين ؛ ورأى فيه شيخاً طاعناً فى السن قد وقف بالقرب منه ، ثم خرج اثنان آخران من الكوخ وبعد أن أطعموه وجففوا أمتعته من الماء ساعدوه على إصلاح قاربه المحطم

رهنا سأل الأسقف :

— وكانوا يشبهون ما ذا ؟

— كان أحدهم صغير الجرم ، منحنى الظهر ، يرتدى ما يرتديه الكهان ، وكان طاعناً فى السن إلى حد كبير ، إذ ما أظنه إلا قد جاوز المائة من عمره حتى أن شعر لحيته كان قد خالطته الخضرة الفاتحة من شدة الكبر ! وكان إلى ذلك باسماً وضاء الوجه ، كأن وجهه وجه ملك من ملائكة السماء. أما الثانى فكان أطول من صاحبه قامة ، وكان طاعناً فى السن أيضاً ، وعليه رداء خلق مما يلبس الفلاحون ، ولحيته كبيرة قد ضربت إلى الصفرة من شدة البياض ! وقبل أن أمد لهذا الشيخ الفانى يد المساعدة انقلب إلى قاربى فحمله كأن لم يكن قارباً ضخماً بل دلواً صغيراً مما يحمل به الماء ! وكان هذا الآخر حنوناً شفيقاً . أما الثالث فكان طويلا أيضاً ذا لحية بيضاء كالثلج ، قد امتدت وتشعبت حتى وصلت إلى ركبتيه ؟ وكان متجهم الوجه عابساً ، بحاجبين غليظين مشرفين على وجهه . وقد لف حول بدنه من الوسط حصيراً

فسأله الأسقف قائلاً :

— وهل تحدثوا إليك بشئ ؟

كانوا فى أغلب الوقت لا ينبسون ببنت شفة ، وإن نطقوا — وقليلاً ما يفعلون — اقتضبوا الكلام فيما بينهم... إن أحدهم ليرمق الآخرين بنظرة واحدة فما أسرع ما يدرك هذان الآخران قصد صاحبهما !

وقد سألت أطولهم : هل كانوا قد استوطنوا الجزيرة من أمد بعيد ؟ فعبس وغمغم شيئاً كالمغضب ولكن أكبرهم أخذ يده بين يديه وابتسم فسكن ثائر الطويل وأجابنى الأخير بهذه الكلمات :

— « إن الرحمة والغفران لمن فوقنا ! »

وكانت السفينة اقتربت من الجزيرة حينئذ قليلاً ، فقال التاجر الذى بَادَأَ الأسقفَ الكلامَ — أول الأمر — :

— أنظروا يا صاحب السيادة — إن الجزيرة لتبدو الآن واضحة ، قال ذلك وأشار بيده نحوها .

ونظر الأسقف فأبصر بقعة دكناء حقاً .

— كانت الجزيرة — وبعد أن أطال إليها النظر غادر مكانه وذهب إلى من بيده « سكّان السفينة » فقال له :

— ما تلك الجزيرة ؟

— ليس لتلك الجزيرة اسم ، وفى عرض البحر مثلها كثير .

— أحقاً أن فيها زاهدين قد خلصوا إلى إنقاذ أنفسهم ؟

— إنه ليقال كذلك — يا صاحب السيادة — ولكنى لا أدرى حظ هذا القول من الصحة ؛ وكثيراً ما زعم صيادو السمك أنهم شاهدوهم ، ولا ريب فى أن ما يقولون محض تخرص وتلفيق !

— أريد أن أنزل إلى تلك الجزيرة وأري أولئك الرجال ، فكيف السبيل إلى ذلك ؟

— إن السفينة لا تستطيع أن ترسو بجانب الجزيرة ؛ غير أنكم تستطيعون الذهاب إليها فى قارب، وخير من هذا أن تكلّموا الربان فى الموضوع

وأرسل فى طلب الرّبان فجاء. فقال له الأسقف:

— أريد أن أرى أولئك الزهاد ، أفلا يمكننى الخروج إلى أرضهم ؟

وحاول الربان أن يقنعه بالعدول عن فكرته قائلا:

— أجل، إن ذلك فى الإمكان، ولكنه يقتضينا وقتاً جد طويل ! ولو تجاسرت لقلت لسيادتكم إن أولئك الشيوخ لا يستحقون كل هذا العطف منكم عليهم. إنهم مجانين خرِفون، لا يعون مما يقال لهم شيئاً ولا يفهمون ؛ ثم إنهم لا يزيدون كلمة على الأسماك التى فى البحر — إن كان للأسماك حديث! —

غير أن الأسقف بقى مصراً على رأيه ، مقرراً أن يراهم ، وتعهد أن يعوضهم عن كل ما يخسرون .. فلم يكن مما أراد بد ، وصدرت الأوامر إلى الملاحين بتوجيه السفينة إلى ناحية الجزيرة ، واتخذت لذلك التدابير ... وجئ بالكرسى فوضع فى صدر السفينة ليكون مجلس الأسقف عليه يرقب الجزيرة . وكان الركاب بجمعهم قد تجمهروا هناك فكان ذوو البصر الحاد منهم يرونها وصخورها ، ثم الكوخ الذى فيها ، حتى استطاع أحد المشاهدين أخيراً أن يبصر الرجال الثلاثة أنفسهم .

وإذ ذاك جاء الربان بمنظار وبعد أن مدّ فيه بصره سلّمه إلى الأسقف قائلاً :

أولئك هم حقاً ! قد وقفوا على الساحل .. هناك إلى يمين تلك الصخرة الكبيرة قليلاً . وسلم المنظار إلى الأسقف ، وبعد أن مد فيه هذا بصره رأى الرجال الثلاثة — الطويل ، فالأوسط ، فالقصير المنحنى الظهر ، وقد وقفوا على الساحل متماسكين بأيديهم .

وهنا التفت الربان إلى الأسقف قائلاً :

— إن السفينة لا يمكنها أن تتقدم إلى أكثر من هذا يا صاحب السيادة فتفضلوا فاركبوا زورقاً يوصلكم إليها إن شئتم ، بينما نرسو هنا فى انتظاركم

وألقيت المرساة ، وأنزل الشراع ، فعمت من ذلك — السفينة حركة اهتزت لها ، ثم سكن اضطرابها فأنزل إلى البحر قارب ركبه بعض الملاحين وهبط الأسقف إليه معهم واتخذ مكانه فيه . ثم جدف الرجال فجرى بهم الزورق سريعاً نحو الجزيرة ؛ ولما وصلوا إلى ممر بين الصخور رأوا الشيوخ الثلاثة : طويلهم بحصيره التى التف بها ، ثم الذى يليه فى ثوب خلق من أثواب الفلاحين ، ثم أقصرهم ، وأصغرهم حجماً : محنيّ الظهر كبراً ، وقد لبس ثوباً مما يرتديه النساك وكان بعضهم ممسكا بأيدى بعض .

وتقدم الملاحون من الشاطىء واقتربوا منه ، فربطوا القارب به بينما صعد الأسقف إلى البر . وانحنى له الشيوخ الثلاثة ، فحياهم بمثل تحيتهم وقال يخاطبهم :

— لقد تراءى إلى أنكم رجال أتقياء ، تعيشون هنا لتخليص أنفسكم وإخوانكم الناس بالتضرع إلى سيدنا المسيح . . وأنا خادم غير ذى بال من خدمه دعتنى العناية الإلهية إلى إرشاد عباده ، وقد جئت لأراكم وأعلمكم ما أستطيع أيضاً . . فتبادل الرجال الثلاثة النظر بينهم وابتسموا ولكنهم لزموا جانب الصمت . ثم قال الأسقف :

— خبرونى ما أنتم فاعلون لإنقاذ أنفسكم ، وكيف تخدمون الإله على هذه الجزيرة ؟ ؟ فنظر أوسطهم إلى الكبير وتنفس الصعداء . فابتسم الأخير وقال يخاطب الأسقف :

— لاندرى كيف نخدم « الرب » إنما نحن نخدم أنفسنا ونتعهدها

— وكيف تصلون لله ؟

— إنا نصلى هكذا :

« أنتم ثلاثة

« ونحن ثلاثة .

« فارحمونا ! »

ولما قال الشيخ ذلك رفع الثلاثة أبصارهم إلى السماء وكرروا الجملة فتبسم الأسقف .

— إنكم على ما أرى قد سمعتم عن « الثالوث المقدس » ولكنكم لاتؤدون صلواتكم على الوجه الصحيح ؛ وأراكم أيها الأحبة تسعون إلى إرضاء بارئكم ولكنكم تجهلون الوسيلة إليه . فتعالوا أعلمكم طريقة الله التى أوصى عباده باتباعها فيما أنزل من كتب وأسفار مقدسة . وبدأ الأسقف يشرح للزهاد كيف جاء المسيح هادياً للناس ، ثم حدثهم شيئاً عن « الأب والابن والروح القدس » فقال :

— وقد نزل « السيد الابن » إلى الأرض لينقذ الانسان ، وعلمنا أن نصلى هكذا . أصغوا ثم أعيدوا بعدى ما أقول :

— يا أبانا . . .

فقال أولهم « يا أبانا » وقال الثانى مثل قول الأول ثم أعاد الثالث قوليهما .

— . . الذي فى السماء . .

فأعاد أولهم الجملة الثانية صحيحة ولكن الثانى تلعثم بها ، أما الثالث فقد أخطأ ؛ إن الشعر كان قد نما حول فمه بحيث ما كان يستطيع أن يقول شيئاً بوضوح . وصاحبه الذى قبله : فقد كانت السنين الطويلة أسقطت كل أسنانه بحيث لم يكن فى مقدوره أن يمضغ طعاماً أو أن يقول شيئاً إلا غمغمة لاتبين ! !

وأعاد الأسقف الكلمات ثانية فكررها بعده الزهاد . . . ثم إنه جلس على صخرة كانت هناك حيال الثلاثة الذين كانوا يرقبون فمه ، مايصدر من قول إلا أعادوه .. وعمل الأسقف طيلة ذلك النهار ، يقول الكلمة . . . المرة والمرتين . . . والعشرين والثلاثين ، بل ربما قالها للمرة المائة أو تزيد ، فيعيدها الشيوخ الثلاثة بعده فاذا أخطأوا أعاد عليهم وأمرهم باعادة الكلمة من جديد .

ولم يغادرهم الأسقف حتى علمهم كل صلوات الله بحيث أصبحوا قادرين على إعادتها بأنفسهم — لا كما بدأوا يعيدونها بعد سماعها من فمه — وكان أول من تعلمها وتمكن من إعادتها بنفسه : أوسطهم ، فكان الأسقف يأمره باعادة تلاوتها مراراً حتى تعلمها أخيراً منه الاثنان الآخران ... وكان الظلام قد جثم على المكان وطلع القمر يريق أشعته على مياه البحر حين أوشك الأسقف أن يغادر الزاهدين إلى السفينة ؛ فسجد له الشيوخ شاكرين ، فأنهضهم وقبلهم واحداً بعد واحد ، وحثهم على اتباع تعاليمه في أداء الصلوات ؛ ثم استقل القارب إلى السفينة .

وكان وهو فى القارب متجهاً إلى السفينة تطرق آذانه أصوات الثلاثة مرتفعة فى هدوء بالتراتيل التى علمهم ، ثم انقطعت أصواتهم عنه حين بلغ

السفينة ، وأما منظرهم فى ضوء القمر فكان بيناً واضحاً يستطيع أن يستجليه بوضوح ويسر . ذاك أقصرهم قد وقف فى الوسط والاثنان الآخران قد وقف أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره .

وما أن وصل الأسقف للسفينة حتى رفعت شراعها وأقلعت ، فهبت الريح رخية ، واستؤنف السير .

... جلس الأسقف فى مؤخرة السفينة بقرب « سكانها » يراقب الجزيرة التى أقلعوا منها ... كان يرى — أول الأمر — الزهاد الثلاثة ثم اختفى منظرهم عنه ، فابق غير الجزيرة ولكن هذه اختفت أيضاً فلم يبق أمامه غير البحر تضطرب أمواجه تحت أشعة القمر .

وأوى الحجاج إلى فرشهم فخلا ظهر السفينة إلا من الهدوء التام ؛ أما الأسقف فلم تكن فى نفسه إلى النوم حاجة ، ولكنه ظل حيث كان يحدق فى البحر ، فى المكان الذى اختفت فيه عن ناظريه الجزيرة ، مفكراً فى أولئك الشيوخ الثلاثة . . لقد كانوا ممتنين مما علمهم ؛ فشكر الله على أن أرسله ليهدى أمثال هؤلاء التقاة البررة !

ظل الأسقف جالساً فى مكانه كذلك يفكر فى هذا ومثله يحدق فى تلك الناحية التى غاب منظر الجزيرة فيها وضوء القمر يتلألأ أمام عينه يداعب أمواج البحر هذه مرة وتلك مرة ، وإنه لكذلك إذ بصر فجأة بشىء أبيض مشرف يظهر على موقع قمراء البدر من البحر ... أتراه طيراً من طيور الماء ؟ أم هو شراع إحدى المراكب الصغيرة؟ وأثبت الأسقف فيه بصره ما يحوله عنه ... لا بد أن يكون شراع إحدى السفن الصغيرة تجرى وراءنا ولكنى أراها تتبعنا سريعاً ، لقد كانت منذ لحظة بعيدة ، بعيدة جداً فما أسرع ما أدركتنا؟ لا ، ليست هذه مركباً إذ ليس لها شراع — ولكنها مع ذلك جادة فى اقتفاء أثرنا ! — ولا هى من الطير ولا الأسماك ؟ ثم إنها أكبر من رجل ! وأنى لرجل أن يتراقى على الماء فى وسط البحر ؟

ونهض الأسقف فخبر « مدير الدفة فى السفينة »

— أنظر إلى هناك . ما ذاك يا صاحبى ؟ أى شىء هو ؟

... إنه ليرى الزهاد الثلاثة يركضون على الماء وضاحة وجوههم ، مشرقة طلعاتهم وقاربوا السفينة حتى لكأنها قد وقفت عن السير !

ونظر الربان فترك إدارة السفينة مذعوراً :

— يا إلهى ... أولئك هم ثلاثتهم يركضون خلفنا كما لو كان وجه الماء أرضاً صلدة ! وسمعه الركاب فهرعوا وتجمهروا حوله ... ما ذا يرون ؟ إن الزهاد ثلاثتهم قد أقبلوا وأيدى بعضهم تمسك بعضاً ... فأشاروا إلى السفينة أن تقف ، وقبل أن تتمكن السفينة من التوقف عن السير وصلوا إليها ورفعوا رؤوسهم قائلين بصوت واحد :

— لقد أنسينا تعليمكم يا عبد الله . إنا منذ أن تعلمناه بدأنا بتكراره ، ولكن سقطت منا كلمة ... ثم إنا نسيناه كله الآن فعلمنا تارة أخرى !

فاتجه الأسقف إليهم وانحنى يخاطبهم :

— إن الله ليتقبل صلواتكم التى كنتم تتوجهون بها إليه ! ليس لى أن أعلمكم شيئاً ، بل صلوا من أجلنا نحن المذنبين ! »

وانحنى لهم ، فرجعوا من حيث أتوا ...

واختفوا عن النظر ، ولم يبق من آثارهم غير شعاع كان آتياً من حيث اختفوا حتى أشرق ضوء النهار !

فخرى شهاب الحيدرى